جبل الزهرة

قصص قصيرة ولوحات

أمين الصيرفي



«إن فى الحلم بقية من الإنسانية لم تمت.. وما عدنا اليوم نملك بلوغها عن طريق مباشر»

نيتشه

تقديم

أنا مع أحاسيس البشر.. التى هى جزء منى
وجزء منها.. وعى واقعى. ولا وعى سيريالى
أنا وهى.. روح وقلب وعقل وجسد،
لا فرار من وجودها معاً فى ألفة وصراع وسعادة وألم..
هذا هو سر التركيبة السحرية
سر بقاء الكون.. والفن .. والإنسانية
وأنا .. لا مهرب لى من الكائنات الهاجسية التى تحيا بداخلى فتجعلنى اتحرر من الجاذبية الأرضية وأحلق فى سماء أساطيرى الداخلية
هذه المجموعة القصصية.. أطرافها فقط تحدث من الخارج وبقيتها فى أغوار النفس البشرية
هذه القصص .. والرسوم.. والأحاسيس.
رغم إنها بعضاً من الأحلام والرؤى إلا إنها بعضاً من الذكريات ونقوش من دفتر رسام.

أمين الصيرفى


١٩٩٩

إهداء ...

- إلى الروح الوثابة . . التي تعشق الترحال
- إلى القلب العاشق . . السابح في الأساطير والأحلام
- إلى الكائنات الهاجسية . . التي تحتل نبضي
- إلى أجنحة الأساطير . . التي تهمس لي بأحلى الكلمات
- إلى الغابات والأمطار، والأحاسيس والأفكار
  التي عاشت بداخلي، وعشت بها
  في دفتر الرسوم والأشعار

أمين الصيرفي



خلف جدران الجسد الفارغ يقبع طفل صغير خارق.. يفرح لرؤيتك، يقفـز فى حنايا القلب.. يزلزل جدران قفصى الصدرى، يلهو بعقلى فترتسم على شفتاى إبتسامة طيبة، وتضيع الكلمات قبل أن تخرج، أفقد القدرة على الكلام. ولا يبقـى لى سوى براكين طفل يلهو بكرات النار على أحبال أعصابى وشراييني، وعنـدما ترحلين يبقى الرماد عالقا بذهنى، راسما بعض حروف العشق الممزوجة بالرهبة وأبيات شعر كتبها الصبى اللاهي بقطعة من الجمر على كل قطعة من الجسـد.. أحسبك قد قرأت بعضها مكتوبة على حدقة عينى.

على قمة جبل الزهرة ينام الصبى، يضع جانـب رأسـه علـى السـندس الأخضر الندى، ينصت إلى صوت دبيب الرياح.. من أين تأتى.

فيعرف أن المطر قادم فى الطريق يمتطى صهوة الرياح المجنحة الآتية من الشرق. بعد أن قطعت مسافات طويلة بعرض الأرض، لملمت خلالهـا.. علـى ظهرها سحباً من كل بحار العالم.. وأتت لتلقى بها هنا على قمة جبل الزهـرة .. لترويها .. ابتهج الصبى بالبشارة فقبل الأرض الندية قبلة، إفشاء السر، ونام على ظهره.. وغفى.

صنع الصبى تمثالا من الطمى لجسد امرأة ورأس طائر، وعلـى ظهرهـا كتب أسمها، ورسم زهرة خائفة مضمومة أوراقها، وخبأها فى بطن الجبل.. وكتب على الأرض بإصبعه حروف مبحوحة، ورسم عـين حارسـه، وطبـع كفـه.. وانصرف.

وحين أتى المطر محا الحروف والرسوم، انجرفت مع الماء فـــى إتجـــاه المنحدر، فأرتوى الشجر وتلألأت الكلمات علـــى الغصـــون، واغتســـلت أوراق الزهرة النائمة فى حضن الجبل.

فعرف الصبى أن المطر جاء ليغسل الكون من الخريف، ويفرش الطريـــق للربيع القادم على الأبواب فى أمسيات الليل يجلس الصبى بجوار الزهرة، ينظـــر للبدر ويحسبه نافذة مفتوحة فى حائط الظلمة، وخلفه تجلس الحبيبة، تستمع إليه .. كُلَّ الصبى من السؤال عن الزهرة. وانتظار وجه محبوبته أن تطل عليه من خلف ستائر نافذة البدر اللبنية، وحين يكون القمر ليس بدرا يعرف أن الحبيبة قد أغلقت نافذتها.. فيسأل النجوم أن تدله وتوصل رسائله إليها.. ويرسم على جذع شـــجرة بدرا يطل منه وجه الحبيبة.

فى الشتاء خيم الصمت والصقيع على الجبل.. يشكو الجبل من الوحـــدة، كذلك الزهرة. والصبى. جميعهم ينتظرون عودة الربيع وإطلالة الحبيبة الساكنة فى البدر البعيد السابح على جدران الليل.

وذات مساء لملم الصبى أشياءه .. رسومه وحروفه التى على سطح الجبل .. والجبل .. والزهرة ... والتمثال والطوطم .. والعين الحارســـة .. وصـــورة الحبيبة المرسومة فى دائرة البدر على جذع الشجرة .. وامتطى حصانه ، وذهب يبحث عن حبيبته.


AMIN.

- لا أحب الرجل أن يغازلنى .. أحبه أن يغتصبنى، يأخذنى عندما يريد.
- لكن الحب لا يمكن أن يكون قسرا.. نحب أو لا نحب، كيف يكون حباً وإغتصاباً. ؟
- لا أحد يستطيع أن يأخذ من المرأة مالا تريد أن تعطيه، لكنها تستمتع كأنثى بأن تكون فريسة.
- فى الحب المرأة والرجل كيان واحد ... لا فريسة ولا قناص.

"... ونظرت بين عينيها فى محاولة لاكتشاف الرغبة المخبـوءة بينهمـا، بـين عينيها مسافات شاسعة من الرغبة والخواء والتردد.. إحداهما مستعرة بالنار والأخرى خافتة، باردة كالثلج، وهى فيما بينهما جثة مصلوبة على الطرقات تتمنى أن تسـتتر أو أن تأكلها نسور الطريق.."

الحجرة شاسعة، خالية. كئيبة، بلا نوافذ، أعتقد أن جدرانها الرمادية، الترابية هذه كانت بيضاء فى يوم من الأيام، تمتلئ أرضها بأوراق ممزقة سكب الزمن لونه الأصـفر عليها، وجفت أطرافها كأنها قد التهمت نفسها أو قد مزقتها أذرع الرطوبة والملـل. فـى سقف الحجرة مصباح بارد ينشر الضوء المخنوق الباهت، حتى تكاد لا تشعر بوجـوده، مشنوق فى سقف الحجرة على سلك مغطى بطبقة من خيوط العنكبوت.

من الحجرة يتفرع دهليز واحد ضيق، سرت فيه لأعرف إلى أين يقودنى، أبواب موصدة على الجانبين، وقرب نهايته سمعت أصواتاً مبهمة تصدر من حجرة قريبة، وبعد إنحرافى فى نهاية الممر ناحية اليسار.. كانت حجرة واحدة مفتوحة.. على اليمين، ويمتد هذا الدهليز إلى ما لا نهايـة وقد أكتنفه ظلام غير عـادى، فـدخلت إلـى الحجـرة المفتوحة.. وأنا صـامت.. استكشف عالما غريبـا، وكأن أحداً لا يرانـى، وربمـا أنـا أيضـاً لا أرى نفسى.

في تلك الحجرة مجموعة من الأسرة بلا أرجـل، موضـوعة علـى الأرض.. ووسائد، وأغطية متناثرة حولها في كل اتجاه وعلى الآسرة وحولها.. رجال ونساء عرايا وشبه عرايا في مجموعات تتحاور، تتلامس، تلتصق في مشاهد مختلفة مثل .جدران معبد هندي قديم للإله كريشنا ذو الأذرع الثمانية ... كل هذا يحدث في صمت وهدوء وبحركة بطيئة .. ولا أحد ينتبه إلى وجودي... مررت في وسطهم حتى وصلت للجهة الأخرى من الحجرة التي يحتل أغلب جدارها باب خشبي ضخم وضع على جانبيه بالنحت البارز رمز لشمس وسيف.. فتحته عن آخره، فكانت حجرة أخرى كبيرة مثل قاعـة محاكمـة وبهـا مقاعد خاوية، جلست في الصف الأخير.. وأخذت أتأمل.

منصة كبيرة في الواجهة يجلس إليها رجال ثلاثة. وعلى الجدار خلفهم سيف كبير بعرض الحائط، وبجانب المنصة رجل واقف يحرسهم ذو جسد فارع مبتـور الـرأس... وعلى الجانب قفص حديدي مملوء بالجثث المسجاة على الأرض فوق بعضها، لفت نظري أن القضاة الثلاثة .. أجسام ثلاثة مكفنة بالكامل بقماش رمادي لا يظهر منها سوى فتحتين للعينين غير الموجودتين فمكانهما ثقبان سوداوان كبيران كهوة عميقة، غائرة، وقد انشغلوا معا في وزن قطع من اللحم.. الأوسط يمسك الميزان والآخران يناولانه قطعاً من اللحـم النازف فيزنه ويلقي به على الأرض أمامه .. أصابني نوع من الدوار والغثيـان. فقمـت مسرعا، خرجت من باب جانبي .. إلى الدهليز الممتد المتفرع هذه المرة.

أخذت أبحث عن مخرج في الطرقات المتفرعة وأجري في كل الاتجاهات علـى أجد بابا مفتوحا، حتى لمحت نافذة بعيدة للضوء وشريطاً في الهواء البارد، غـدوت فـي اتجاهه لمسافة طويلة حتى وصلت لباب مفتوح على المدى، فخرجت منـه .. إنتفضـت توقفت فجأة، كان الهواء عليلاً على شاطئ البحر، وصوت هديره يغسل أذني من صمت ذلك البناء المهجورة المسكون بالأشباح الصامتة.. لكن على الشاطئ كانت ترقد جثة فتاة عارية، كادت تصطبغ باللون الأزرق. وعلى بطنها تقف بعض العصافير تنقـر بعـض الحَبْ.

وحولها تناثرت أوراق إدانتها، وبطاقات هويتها.. وشواهد عدة لقبر واحد غير موجود، بأسماء مختلفة.

إقتربت منها ونظرت إليها فى تودد وحسرة على جمالها الندى مثل زهرة شنقت فى مهدها، وسقطت أوراقها.

توجهت إلى البحر، أحضرت زهرة فى يدى، وفى يدى الأخرى بعضا من الماء الرائق.. سكبته على جسدها، ووضعت الزهرة فى شعرها.. علها تشم رائحة الزهرة والبحر فتعود للحياة والتنفس من جديد.. حطمت كل شواهد القبور من حولها.. وبطاقات الهوية، عدا واحدة حقيقية.. وتركتها بجانبها.

- الحب رداء وردى يستر عورة الجسد وضعفه.
- تمنيت أن يكون لى يوما رداء ورديا.





على جدائل الليل الملقى على كتفى البدر سبحت ضد التيار أو قد جرفنى التيار، إلا إننى قد إستمتعت بتلاطم أمواجه السوداء التى تداعبها نفحات هواء الشاطئ فيزيدها تألقاً منعشاً مثل أغنيات تحمل رائحة العطر بين نغماتها.. لو كان الليل بلا نهاية ما إنتهيت أبداً. لكن أنشـــودة الليل سرعان ما تنتهى فيغمرك الفجر بضيائه الأملس. بياضه وهج طيب وظلاله قرمزية وفى قلب الفجر زهرتان سوداوتان سابحتان على جناحين من السحب القطنية يهبهما قرص الشمس الطالع.. كل يوم حياة جديدة ولوناً آخر.

نفضت رأسى من بلل الليل المظلم وسرت فى إتجاه الفجر الوليد، الباسط أذرعته على الكون، ينحنى ليقبل زهرة حمراء قد اكتمل نضجها وتفتحها، وقطرة ندى فجرية قد رست على مرفئها فاستراحت ونامت وأنا قد ملت عليها، داعبتها وهمست لها ببعض أسرارى وأشعاري، فابتسمت وانتشت.

وهبنى ذلك الأمل لإكمال المسير.

فتحت أزرار المدى، خلعت عنه عباءته لأكشف عن أسراره .. تلال مـــن الرهبـــة الممزوجة بالسحر، أمواج ناعمة من رمال، أتحسس وجه الأرض.. دافئة، رطبـــة، رخـــوة، فائرة، ثائرة، مستسلمة، مستكينة.

على قمة التل أضع أذنى لأستمع إلى نبض الكون، وترانيمه فى عشق الحياة، وعنـــد مركز الأرض ترقد حمم ليّنة طَيّبة لا تثور بل تجرفنى إلى قاع الأرض، وغابات المجهـــول ورائحة البخور، والأقنعة البدائية ذات الأفواه المفتوحة فى دهشة، فخلعت ملابسى العصـــرية وعدت بدائياً، نقياً.. لا أفكر بل اشعر مثل حشائش الحقول وهى تميل مع الريـــاح، وحســـبما تكون الريح تنحنى هى مثل العابد الخاشع.

فرقصت رقصة المطر على طبول القلب. فأتى المطر وفق إرادتى.

كلما رقصت زاد المطر، فأنتشى أكثر، وأرقص أكثر لا أنا إنتهيت.. ولا إنتهى المطر.

الإسكندرية ـــ صيف ١٩٩٥



مع الفجر بدأت رحلتى لا أملك سوى خارطة فى رأسى غير واضحة المعالم من بقايا أحلام قديمة وأصوات صدئة تزحف على جدران جمجمتى من الداخل.

لا أعرف إلى أين تقودنى خارطتى، لكن البحث عشقى، والترحال أغنية تسبح فى سماء المنتظر، فى جعبتى زادى للسفر فتات من الرغبة، وبعض أمنيات.

على أطراف المدينة أوليت لها ظهرى، وسرت حريصاً فى إتجاه الرمال اللامتناهية، المتموجة كأجساد أنثوية ساكنة تحت ثوب من الرمال الحريرية الساخنة، الناعمة التى تكسوها دفئاً.. كأجساد منذ زمن نائمة هناك كادت تبتلعها الأرض..

والشمس قد صارت فى الأفق كحفنة وَهَج وتميمة ذهبية. تَبَدّى لى تلّ من بعيد، بدى كبوابة للدخول إلى المجهول، داعبنى الأمل.. جريت.. مشيت.. زحفت وعندما وصلت إلى قمته لم أجد شيئاً سوى صمت زاحف على الرمال.. تملكنى غضب وحزن، كدت أبكى كطفل.. مددت ذراعاى عن أخرها أمامى، وتوجهت بوجهى للسماء، أغلقت عيناى.

شعرت بحبات العرق الدافئ تنساب على صدرى مثل دموع ساخنة، أخذت نفساً عميقاً جداً فشعرت أن سحابات رطبة قد سقطت داخلى مع شهيقى .. وصرخت

إلى أين .. ولماذا
ما دام المصير هو المصير
والقدر مكتوب
والمجهول .. محض أوهام، وعذاب.
فجاء صدى الصوت من داخلى ..
الحلم .. لحمك ودمك
والبحث .. طريقك المكتوب
لو إستسلمت .. إنتهيت.

تلفت حولى فى كل أتجاه.. حتى وقعت عينى على شئ ما أسفل التل تبـدو لـى كزهرة نضرة عليها ترقد قطرة ندى فى سلام وسكون وسط الرمال.. أو إنها لؤلؤة تبكى ضياً منثوراً فى كل إتجاه، أو ربما طائر صغير يحاول الرفرفة مـن جديـد.. أو ورقـة بيضاء تلهو على سطحها أحرف ملونة..أو..

لم أتردد أكثر من هذا، كان على أن أذهب إليها وهناك سأعرف، جريـت، وكلمـا إقتربت تصورتها شيئا أخر يتحور مثل رؤى وسراب يزهو ويخفت، إقتربت بحـرص.. وبخطى وئيدة ضاقت كلما اقتربت أكثر.

أحاول من خلف عاصفة رملية أن أعرف ماهية ما رأيت، وفجـأة تخفـت الـريح وتستكين، ويعود كل شئ إلى هدوئه.

كانت هى تجلس أمامى كزهرة وطائر ولؤلؤة وكتاب، فى ثـوب زاهـى الألـوان وإبتسامة ودود على شفتيها.. وفى عينيها باب الدخول.

جلست على ركبتى، وضعت كفاى على الأرض أمامى، سرت على أربع، عيناى لا تغيب عنها. أمسكت طرف الثوب، رفعته، أدخلت رأسى ثم ذراعاى ثـم جسـدى كلـه، ومررت فى لحظة ظلام.. بعدها خرجت من الناحية الأخرى.. من فتحة "التنورة" أخرجت رأسى ثم زراعاى وصدرى، إستقر الثوب على وسطى.. ومن حولى تغير كـل شـئ . حبات الرمال صارت بشراً، يدورون فى دوائر، يدقون الدفوف مثل الزار، ويغنون أغانى غير مفهومة، أصابنى جنونهم فشاركتهم ورقصت كالممسوس، أطحت برأسى فـى كـل إتجاه، أخذتنى نشوة الجسد المهووس والإهتزاز العنيف حتى سقطت على الأرض شـبه مغشياً على بعد فترة كان كل شئ قد هدأ.. فيما عدا صوت دف بعيد فى سبيله للرحيـل على إيقاع واحد.



ثانية.. عدت وحيداً، وقفت، خلعت قميصى وألقيته على الأرض، تطلعت للشمس وهى تودع وجه الأرض، وتكتب آخر كلماتها على صفحة الأفق وفجأة .. إهتزت الأرض من تحتى إهتزازاً عنيفاً، وصوت إرتعاش الصخور فى الباطن.. لا يهدأ، يتصاعد فى غضب محموم.

تيبست فى مكانى كأنى قطعة من الصخر قد زرعت فى الأرض بدأ صدرى يطقطق.. وشروخ تجرى فيه فى كل إتجاه، وتتفتح، فتخرج منها حمم بركانية ساخنة ملونة، أشعر بسخونة غير عادية، الدخان يتصاعد من مسامى، يذوب الجلد واللحم.. اتلاشى.

لم يبقى سوى حفنة من دخان طارت بعيداً كحصان يعدو فى السماء فى إتجاه قرص الشمس ليلحق به قبل أن يغيب.



فى غابة شاسعة مزدحمة بأجسام من رعب ووهـم.. أشـجار الحـزن العتيقـة المكسوةَ بالأنين تسد الطريق فى كل إتجاه، وصوت الظلام مثل يأس أسود زاحف فـى أتجاهى.

أشعر أن آلاف الثعابين تتلوى حولى على الأرض ولا أراها، صمت موحش يسرى فى الهواء الهامد، يخترق ضلوعى مثل ألم ذو طنين حاد.

أتخبط فى أذرع الأشجار التى تحاصرنى، أزيحها عن طريقى.. وأهرب.. أجـرى فى كل إتجاه، أتخبط .. ولا أعرف طريق الهروب، ما بين الترنح والترنح أواصل العدو، أصطدم بالأشجار والأشواك والخوف، وبين الحين والحين ألتقط أنفاسى وأتلفـت حـولى لاهثاً، فأشعر أن الخطر ما زال قريباً يعدو خلفى، متخفياً فى رداء الليل، ينتظر سـقوطى فى أية لحظة، الدم يسيل على سطح جلدى فى أكثر من موضع مثل خيوط رفيعة بـاللون الأحمر كخريطة تعلن عن موضع الهدف.. والفريسة.. ولا تتنبأ بطريق الخروج.

عدوت.. وعدوت.. حتى اصطدمت بجدار ضخم، صلب ولين.. جسم هائـل مـن الظلام الأسود والشعر الكثيف، ليس له ملامح سوى عينين حمـراوتين، تشـعان وهجـاً مخنوقاً، تخلو من أى تعبير حاد، لكنهما تثيران الرعب فى القلب كمن وجد نفسه فجأة فى فوهة بركان يكاد يلتهمه.. نظر إلى نظرة الميت للمقتول، وزام وهمهم، وكشر عن أنيابه الصفراء المعروقة. شل جسدى كله من هول المفاجأة، سرى التيبس فىأنحـاء جسـدى وأطرافى، ولم اتحرك من مكانى.

قبض بكفه على .. إحتوتنى كُلّى، صرت كعود يابس فى قبضـته بالكـاد أتـنفس، رفعنى ناحية فمه، شممت رائحته النتنة، زاد ضغط قبضته علىَّ، ضلوعى كادت تتهشـم، وكدت أغيب عن الوعى.. فاستسلمت له وخارت قواى، وصرت لا أفكر فـى شـئ، ولا أريد أن أفعل شيئاً ولا حتى الهروب ما عدت أستطيع.

همهم بلغة غريبة لم أسمعها من قبل، والغريب إننى فهمته.. قال. " أريد أن آكل قلبك.. وألتهم روحك، احتسى دمك فى كأسى لأروى ظمئى.. ومن عقلك أصنع تميمة وطوطما أتباهى به.. إننى أخيراً قد حصلت عليك".

ألقى بى إلى الأرض، وأنا شبه فاقد للوعى، كانت المسافة من أعلى وحتى ارتطامى بالأرض مثل رحلة كونية عبرت فيها أزمانا ومجرات وذكريات."

عندما أفقت كنت مصلوباً على الأرض، مفتوح الذراعين والساقين ومدقوق فيها المسامير ما بين عظامى، وحولى مرسوم دائرة من الطباشير الأبيض وبعض العلامات والرموز السحرية الغريبة، وهو جالس على مقربة منى، لا أراه لكنى أشعر به، بصوت أنفاسه، ورائحته العفنة.

أعرف أيضاً أنه يستطيع أن يأكلنى فى أية لحظة، لو كان يريد لفعل، لكنه يريد أولاً أن يصهر إرادتى، ويذيب ما تبقى لى من رغبة فى الحياة، بعدها يصبح الجسد وعاء خاليا من الروح.. أو ربما يزيد العذاب طعم اللحم متعة.. ونكهة.

شعرت أن عقلى بدأ ينبض ثانية.. بدأ هو يهمهم.

شعاع من الضوء تسلل من بين فروع الأشجار ليسقط على جبهتى .. يزوم.

ونسمة هواء قد حطت على صدرى العارى.. يزأر.

إستجمعت قوتى، وخلعت يدى بالمسامير من الأرض ثم قدماى.. على أن أواجهه.. قتلته أو قتلنى لا فائدة من الإنتظار، ربما قتلته، ربما الموت أراحنى من العذاب المخبوء .

سمعت صوته يتحرك، الأرض تهتز تحت ثقل جسمه، وقف فى مواجهتى.. فاحتوانى ظله الكثيف داخل دائرة كبيرة رمادية.

لكن لن أتراجع هذه المرة.

فصرخت فيه ..

"لا يمكن أن تكون حقيقة.. لا يمكنك أن تأكل قلبي وعقلي وروحي، أنت وهم عاجز.. مجرد وهم."

صار الصوت مثل شعاع برتقالي غاضب، إخترق جسده، حاصره الصدى مثل خيوط الضوء النافذة فيه.. تشقق جسده بشروخ سوداء، تساقطت أطرافه، سقطت رأسه، أنطفأت عيناه.. تهدم جسده كله مثل حطام يتهاوى.. يتناثر في كل اتجاه على الأرض.

ينفجر الظلام بضوء غامر يتناثر كل شئ وبتَه.. أما جسدي فيسبح في فضاء لا نهائي.. كورقة بيضاء تتلهف للإرتواء بالحروف.





يرقد خلف المعبد الكبير الباهر عالم آخر مظلم من الأحجـــار المتنـــاثرة كالعظـــام المتآكلة.. وفى مكان ما من الركام ينزوى الكاهن طريد المعبد، يمضغ الفتات والحكمة..، وذكريات المعبد القديم.

يجلس الكاهن على ضفاف الحزن الأسود، يتذكر حينما كان هو كبير الكهنة بالمعبد وكانت هى إحدى كاهناته.. تتودّد للجميع، متقلبة المزاج، الكل يخشاها ويخشـــى تقلبهـــا، كانت معه كالموج تقترب فى تودُّد صاخب وتنسحب فجأة فى صمت متراجـــع، تخبـــره بإخلاصها ونقاء نفسها كلما جاءت الفرصة.. أما هو فكان مشغولاً بصلواته وتسبيس نفسه عله يصل إلى ما لا يعرفه عن ذاته وعن الكون من حوله.

تآمرت عليه الكاهنة حتى خلعته، القوا به للخارج، لم يبتعد فهـــو لا يعـــرف ايـــن يذهب؟ يجهل العالم الخارجى، وكيف يسير وما وصل إليه الحال.. سنوات وسنوات وهو داخل المعبد حبيس نفسه، هائم داخل روحة اللانهائية، حام حول المعبد وأسواره العاليـــة حتى وجد فى الخلف المظلم بقعة مهجورة من الأرض الخراب فسكنها، ظل يحصل على فتات طعام المعبد.. الذى يلقونه. ويختفى ثانية، ولا يعرف أحد بوجوده.

بين الحين والحين تنتابه نوبات الغضب المتقد لما حدث فى حياته، فيرتعش جسده، تزداد حرارته ويتصبب عرقاً.. تهتز أرض المعبد، تصطك أعمدته، حتى يكاد ينخلع عن الأرض، تحوطه ريح سوداء تهاجم جنباته.. حتى يهدأ كل شئ وتنطفئ نار المذبح، فـــى كل مرة يسود الهرج بين الكهنة ثم يعودون لصلواتهم طالبين عفو الألهة.

ذات مساء وجد الكاهن حجراً ضخماً، ملطخاً ببقع من الظلمـــة الموحشـــة، يبـــدو كشخص يتنفس فى صمت حجرى، جذب إنتباهه فتأمله لمرات ومرات.. رأى فيه صورة الكاهنة، وكلما إستغرق فى تأمله رآها بداخله، أحضر أدواته وأخذ يكسر فى الحجر كلما وأتته الفرصة وأسعفه الجهد.

كل مساء.. فى المعبد تعود الكاهنة إلى فراشها، تشعر بوخذ فى أرجاء جسـدها، تحاول نسيانه أو تطبيبه بلا فائدة.. فهو يأتى فجاءة ويذهب فجاءة كلاشئ.

بعد أيام وسنوات كان الحجر الضخم قد تحول إلى تمثال للكاهنة، لم يبـق سـوى رتوش قليلة.. على ضوء مصباحه الواهن جلس الليل كله ينهى عمله الذى قارب الإنتهاء، حتى خروج الفجر عليه فإكتسى تمثال الكاهنة بالندى، كلمسة أخيرة، فظهر أمامه لامعـاً، ناعماً مثلها، لكنه أيضا يراه على حقيقته حجراً أصماً.. خشناً.. وقف امامه يتأملـه فـى صمت واجف يصارعه اعجابه وكرهه، ذكرياته ويومه..

أما هى فكانت قد قامت من فراشها الوثير، تشعر بوهن شديد لعدم استطاعتها النوم، من تلك الألام التى هاجمتها فى أنحاء جسدها طوال الليل كمطرقة تدق عظامها.. والعرق الرطب يكسو جسدها المخملى وثوبها الحريرى، فتحت باب حجرتها وجرت فى الردهـا علها تجد من يمد لها يد العون أو يملك علاجاً لآلامها الليلية.

إبتسم الكاهن فى زهو لما أنجزه عبر سنوات، ساعده على ذلـك أن يـرى نفسـه وقدراته كمن اكتشف الحقيقة.. قبض بيده على مطرقته، هجم على تمثاله، هوى عليه فى عنف وجنون.. أطاح به وبأجزائه فى كل اتجاه.

أما هي فكانت تجرى عبر الردهة متألمة حتى وصلت لبهو المعبد، صرخت وإنهار جسدها، هوت، تناثرت أشلائها على الأرض كتمثال أجوف وساد صمت حاد.

سمع هو صرختها، كان قد فتت التمثال، وقف وسط حطامه يشعر بنشـوة بـاردة تخرج من جسده كمن تحررت روحه.



تحت شباكها الأخضر، وعلى الجانب الأخر من الطريق.. أنظر للبيت الساكن، قديم الطراز ونوافذه المغلقة الموشاه بالحديد المشغول، المتسلل فى هدوء.

إنتظرت لساعات والمنزل يجتاحه الصمت كعالم آخر معزول عن الـــدنيا، وبينـــى وبينه طريق من الحركة الدائبة والضجيج، وبداخلى تموء مرارة الإنتظار، وتترنح أحلام اللقاء الواحدة تلو الأخرى. الأن أتذكر نظرتها فى لقائنا الأخير، كانت تضحك فى ســـعادة بالغة، لكن عيناها كانتا فى واد أخر.. حيرى، مسدولة الستائر، وكلما سألتها .. مابالـــك.. أجابتنى "بلاشئ"، لكنها كانت تنتظر شيئاً ما.. نظرتها لا تكذب.. فكذبت نفسى تواعدنا ولم تحضر، إنتظرت أن تتصل وأن تعتذر.. ولم تفعل فاض بى الإنتظار، فذهبت إلى منزلها كى أسأل عنها.. وليكن ما يكون.

فى مدخل البيت سألت، ولم يتعرف أحد على إسمها، أصرَيت، صعدت السلم القديم على مهل وتردد، وفى كل درجة، تهاجمنى التصورات عما حدث وسيحدث والمنتظر.

أنفتح الباب فسألت فى إستحياء شديد، تعجبت الفتاة الصغيرة من ســـؤالى، هـــزت أكتافها ومدت شفتاها.. ما بين النفى والتعجب.. وأغلقت الباب. وإذا بى مشلول الحركـــة، عاجز عن التفكير، إنسحبت كأوراق الخريف الذابلة، هويت من الداخل، هبطـــت الســـلم ومشيت فى الشارع، وشريط من الذكريات يمر برأسى..

عندما رأيتها للمرة الأولى.. الصدفة جمعتنا.. حادثتها فى إقدام وتردد.. ولا أعرف سبب إقدامى ولم ترددى، وحينما لامست يدها، تشابكت أصـــابعنا كمـــن وجـــد نفســـه، إحتضنتها فصار نبضها فى قلبى، صار بريق عينيها يهب لعقلى يقظته ولمعانه، إعتـــدت أن أراها كطقس من طقوس حياتى اليومية، كشمس حياتى وليل إلهامى.

واليوم أين ذهبت، هل كنت واهما؟ هل جننت؟ إذا لم يعرفها النـــاس ألا تتـــذكرها الأماكن التى إرتدناها. الشوارع، المقاعد، الشجر .. لماذا ينكرونها.. ماذا يخفون..

خارج الأسوار مررت، وفى نفس المقاعد جلست، إلى كـل الوجـوه، والأمـاكن تطلعت، وسألت.. فأجابونى بالنفى أو لم يجيبوا.. حاولت وحاولت.. وبحثت فـى كـل مكان، ذكرياتى معها تطاردنى، وأنا بإصرار أطارد أحلامى.

من شارع إلى شارع ومن مكان لأخر، حتى خطاباتها التى كتبتها لي لـم أجـدها، وأيضاً لم يجيبنى أحد وفى أخر الليل أعود للمنزل، انظر فى المرأة أرى صورتى تهتـز، تظهر وتختفى بشكل متقطع كالهذيان، كصفحة الماء المهتزة، أشك فى إرهـاق عينـيَّ، أجلس على الأرض بجوار الحائط متكوراً كالجنين المرعوب، رأسى تكاد تنفجر.. وأعيد الكرة كل يوم، لم أعد أذهب إلى عملى، ولم يسأل عنى أحد.

ذات صباح، خرجت من حجرتى القيت تحية الصباح على والدى ووالدتى ولم يردّا، خرجت ولم يلتفتا، أعتقدت إنهما غير راضيين عنى، فى الشارع لم يلتفـت أحـد إلـيَّ.. سألت أحدهم سؤالا فلم يرد وسار فى طريقه كمن لم يرانى على الإطلاق، وعندما مررت أمام أحد المحال لم أر صورتى معكوسة على الزجاج كالناس من حولى.. ففزعت.

بحثت عن أقرب مرآة لأرى نفسى، ربما خاننى بصرى، نظرت فى مـرأة إحـدى السيارات .. ولم أرَ شيئاً.. لا وجه لى .. ولا ملامح .. أنا غير موجود.



يبدأ السلم الحجرى القديم، العريض بتمثالين متشابهين من المرمر على الجـــانبين لحيوان خرافى برأس اسد وجسم ثعبان ضخم.. وأرجل تمساح.

يمتد السلم لإرتفاع شاهق، في نهايته على قمة المرتفع يقبع البيت العتيق أو "المعبد الكبير" الذى تسكنه الأرواح والألهة، والكهنة، المحظيات، والعجائب.. وبعــض الغربـــاء القتلى أو ما تبقى من عظامهم.. جميعهم كانوا يبحثون عن تميمة العجائب البلورية التـــى تحوى عيون الألهة التي تحقق الأمنيات.

فى نهاية الدَرج باب خشبى فاره، مؤارب، أزحته بصعوبة كى أمر إلى الداخل، فى الداخل قاعة شاسعة ذات سقف عالٍ جداً، وبها عدد من الأبواب المغلقة على كل جانـــب، وفى الواجهة ما يشبه الهيكل وعلى قاعدة من الرخام تمثال يجلس القرفصاء، به أربعـــة أذرع.. فى إحداها ثمرة والأخرى سكين، والثالثة صولجان، وفى الرابعة جمجمه، ولرأسه ثلاثة وجوه.. أحدها ساكن متأمل، والأخر غاضب شرير، والأخير طيب مبتسم.

أخذت أتأمله ربما أجد فيه حل اللغز وكشف السر لاحظت إن أذرعه الأربعة تشير إلى أربعة أبواب من أبواب القاعة الكثيرة، ربما أحد هذه الأبواب يقودنى إلى التميمـــة.. لكن أيهم؟

تأملت الأبواب الأربعة، كل منهم يحمل على واجهته رسم بارز.. على الباب الأول رسم للإلهة عشتار بجسد إمرأة ورأس لبؤة، وتحت قدميها رؤوس بشرية، فعرفت أن هذا طريق ألهة الدمار والهلاك.. فلم أدخله.

على الباب الثانى رسم لرجل يضاجع إمرأة بشكل غير مألوف.. هذا الباب هو باب الكاهنات والمحظيات.. وهذا لن يفيد.

على الباب الثالث رسم لذراع واحد، يخرج من ناحيتها السفلية والعلوية كفان فـــى إحداهما مفتاح الحياة وفى الأخر ثعبان.. فترددت فى الدخول، فربما يكون هذا الباب هو باب الوهم، والأمنيات الكاذبة.

أما الباب الرابع فكان عليه رسم لشمس مشطورة فى نصفها عين مفتوحـــة، وفـــى النصف الأخر سيف ملكى، فشعرت إن هذا هو الطريق الذى يجب أن أسلكه.

فتحت الباب بحذر، ومررت للجهة الأخرى، فوجدت رجلاً يرتدى اللون الأســود، حليق الرأس، حاجباه ملتصقان، أومأ لى برأسه، وأشار لى بأن اتبعه، دون أن ينطق بكلمة كأنه يعرف ماذا أبغى، فسرت خلفه فى دهاليز حجرية ضيقة على جدرانها أعين جاحظة وأخرى مغمضة، حتى قاربنا نهاية ممر مسدود فى نهايته باب وعندما حاولت أن ألحق به كان قد إختفى، كأنه قد عبر فى الجدار للجانب الأخر ترددت مفكراً للحظات.. لكـــن مـــا البديل.؟ على أن أكمل، مددت يدى إلى مقبض الباب، فتحته ببطء.. لأجــد فـــى الغرفـــة الحجرية الصغيرة، التى تضيئها الشموع وتملؤها التماثيل .. إمرأة تجلس القرفصاء على المسامير، وتضم يدها إلى صدرها.. وفى المكان صدى باهت لأصوات بشــرية تهمهـــم بتراتيل غريبة زاحفة على الجدران، وفجأة.. جاء صوتها مثل رنين النحاس.." هل تريـــد التميمة؟" أومأت برأسى موافقاً.

فقالت .."إنك لم تعبر شيئاً بعد، على أن أخبرك بمـــا ســـتقابله إن أردت أن تكمـــل الطريق، وإذا قررت أن تعبر فعليك أن تعرف إن الطريق بـــلا عـــودة.. والـــثمن هـــو حياتك."فهززت رأسى ثانية فى إصرار على إكمال المسير.

فقالت "خلف هذا الباب أرض الأمنيات، فى بدايتها حقول مـــن لهـــب، عليـــك أن تعبرها.. إذا كان إيمانك قوياً بما تبغى فستعبر، وإن لم يكن تحترق. فى نهايتهـــا بحيـــرة العدم وجسر بعرض قدم لو كنت واثقاً بنفسك مررت وإن اهتزت ثقتك .. ســـقطت فـــى ظلام لا نهاية له.. بعدها شجرة مثمرة على فروعها عشرات الثمرات، واحدة فقط تهبـــك البصيرة والأخريات تسلبك يقظتك، فعليك أن تثق بحاستك كى تعرف أيهم تأكل.. ثم تمر

فى غابة موحشة، مظلمة بلا خريطة وعليك أن تجد الطريق بنفسك، مسترشداً بضـــوء الشمس وتوهج عقلك وإلا ضللت.. فى نهايتها مغارة يحرسها وحش ذو عين واحـــدة إن فقأتها قتلته ومررت للتميمة، فإستجمع كل مهارتك وقوتك، عندها تكون قد وصلت، إلـــى حلمك..

" تركتها ورحلت، وأنا أتمتم ببعض الصلوات والأشعار مررت.. ومررت.. حتـــى وصلت.. ونجحت.

أمسكت البلورة ذات العيون فى يدى.. ففتحت جفونها كأن الحياة قد دبت فيها، وجاء صوت من زمن بعيد يقول.. "تمنى.. كل ما تريده يكون، وكلما تمنيت أمنية تغمض عين، حتى تغلق جميعها ثانية.. فتنتهى أمنياتك.."

صَمتُ للحظات.. كانت بطول الزمن..وأجبت .. أتمنى..

أتمنى أن أرى حبيبتى .. ونفسى، وقلبى وقلمى وأوراقى.. والوانى ولوحاتى..





تخرج من جهات الكون الأربع وحوش الارض الضارية، تزأر البحار فى غضب، تلفظ ما فى أجوافها من حمم، تزمجر الجبال وتصطك صخورها، تصرخ قممها ثم تنتحر، فتفترش الأرض، تحنى رؤوسها وتخور مستلقية.

تعصف الريح.. تتطاير الأشجار مُقتَلَعَة من جذورها، تتساقط الطيور على الطرقات، تتهشم عظامها عند إصطدامها، وتستكين للأبد.

صوت الصفير الحاد يقتل المتبقى من الأحياء، تملأ دماء القتلى وديان الموت، تتشقق الأرض، تجف الأنهار، تسطع شمس حارقة فى جوف الأفق، تقذف بألسنة اللهب فتصير الأرض كوهج أحمر .. تتصاعد على سطحه الأبخرة ورائحة الاحتراق.

كنت متقوقعاً خلف حجر ضخم، جسدي يلتهب ومن الداخل يأكلنى الصقيع والرعب.. أرتجف، تلملم الشمس فحيحها ونورها فتأتى ريح قاتمة تملأ الجنبات بالعويل والصفير الحاد، الذى يخفت بدوره فيصير خدراً يتسرب لجسدي الميت.. أفتح عينيّ فأجد كل شئ كنت أعرفه قد تبدل، لم يبق منه شئ.

بعد برهة.. شعرت بصوت يقترب فى خطى وئيدة.. إلتفت.. كان هو، بوجهه المألوف الممتلئ وشعره الرمادى، يرتدى عباءة لا تخفى إمتلاء بطنه المنتفخ، ويمسك بيده عصا تزيد من مظهره كرجل حكيم، يأتى صوته عميقاً كأنه يخرج من مكان أخر.. صوت قديم، صدئ..قائلاً.

"لماذا أنت خائف.. كل شئ قد أنتهى.. العالم انتهى، لاوجود لأحد الأن.. ستظل هكذا وحيداً بقية عمرك لا أعداء لك ولا أحباب أيضاً.. عليك أن تتعلم من جديد أن تكون لنفسك، وأن توجد وسط العدم.. أن تأكل خبزك بعرق جبينك وتخرج طعامك هنا من وسط هذا الموت المحيط بك.. الآن تكون أو لا تكون، أو أن تترك نفسك للموت يأكلك، فقد التهم كل شئ من حولك.. إذا أردت أن تنجو فاتبعني سأدلك على طريق الحياة، الأرض الأن ملكى وحدى.



"وألقى بعصاه على الأرض فتحولت إلى ثعبان ضخم، إستدار عدة مرات، ورفع رأسه ورمقنى بعينين ميتتين، ملتهبتين، وعاد فاستكان تحت أقدام الشيخ.

حاولت أن أتكلم لكن حلقى جاف وذهولى غلبنى، حاولت التحرك، الوقوف لم أقو كنت كالوليد فى أولى خطواته، عقلى فقط قد تهدم، أشعر بثقله وبفوران بداخله.. تمالكت نفسى بعض الشئ ولملمت مشاعرى المبعثرة، المتهالكة وسرت فى اتجاه آخر، نظرت خلفى بعد عدة خطوات وقلت له.. "على أن أجد نفسى بنفسى، لا يمكننى أن اتبعك سأجعل الضوء الذى فى داخلى وما زال ينبض.. يدلنى .. يقينا سأنجو.. حتى إن لم أستطع فقد حاولت قدر إستطاعتى.

خلف زجاج النافذة تتساقط الطيور البيضاء الهشة، تتهشم حينما تلامس الأرض.. تكسو الطريق، الأشجار، التماثيل العارية فى الشوارع.. كل شئ.

الجليد هنا جليد طيب كالقطن، دافئ من الداخل كهمس الأحباب، لكنه يلـتهم كـل الألوان الأخرى، حتى حينما تسطع الشمس المهزومة على استحياء شديد.. يظـل النـور الأبيض الجليدى يغسل كل شئ.

فى صباح أحد الأيام أطلت الشمس قليلاً من عباءتها البلاستيكية.

فطرقت بابى ودعتنى للتمشية فى الغابة التى على مرمى البصر من المنزل.

عباءة الجليد المفروشة على الأرض، والأشجار التى أكل الأبيض والأسود خضارها الشاحب، باسقة كعمالقة صامتون يحجبون السماء ويمنعون أذرع الشمس من أن تمتد إلى الجليد النائم فتبدده كالحلم داخل رحم الغابة المظلم وطرقها غير المعبـده تشـعر ببهجـة الوحدة والغربة والخوف فى آن واحد ذلك الأحساس ذكرنى بإبتسـامة المونـاليزا غيـر المكتملة.. نصف إبتسامة ونصف ألم أو دهشة.

كانت هى بصحبتى، ترتدى فراء الدب تحسباً للصقيع.. وفى الداخل كـان جسـدها الأبيض الثلجى.. ينتفض يتصبب عرق الوحشة، خلتها تتلوى، تمـوء كقطـة سـيامية. تدعونى كى أداعبها.. تتمنى أن تخلع عنها فراء الدب وتتحرر.. تتمرد، تتمرغ فى الجليد، تذيبه بسخونتها، تنزع بمخالبها لحاء الأشجار المتبقى ثم تتمرغ فى حضنى .. لكن حضنى كان مملوء بالشمس وهى امرأة من جليد، فخفت أن أذيبها، وخافـت مـن الأنصـهار.. وتمنته.

إرتجفت كيف فكرت أن أخلع عنى شمسى لفترة.

بيلاروسيا ـــ مارس ١٩٩٧



كانت المدينة صامتة، غارقة في الوحشة، والصمت. أسوارها القديمة، المتهالكة ما زالت صامدة.. هامدة.

على أبواب المدينة وقفت وشعرت بنفس الوهج الصدئ الذى يفوح من جنباتها، تلك الرائحة التى طالما ملأت جدران منزلنا وشوارعنا ونحن صغار، نلعب فى الطرقات وتختفي ما بين المنازل، وفوق الأسطح وفى الأماكن والخرائب المظلمة.

سرت فى طريقى.. يبدو أنها نفس المنازل والبيوت والأحجار المتشققة، والأبواب الخشبية الملونة بدهان باهت، نفس الشوارع والأماكن .. لم يتغير الكثير منذ أن رحلت قبل سنوات وسنوات.

لكن لا أعرف لماذا الطرقات أصبحت أكثر إظلاماً من ذى قبل، تبدو كل الأشياء باهتة، لا أسمع صوت ضحكات الأطفال وصراخهم، لا أرى زهو الألوان فى جلاليب الصغار.

فى الساحة.. كانت نافورة الماء الرخامية فى نفس مكانها، لكنها بلا ماء والتراب قد كساها.

كانت وهى صغيرة عيناها ذات بريق طفولى أخاذ، مملوءة بالتحدى والذكاء، مفعم بالكبرياء. تلعب معنا، وتفعل كل ما نفعل دون أن تشعر بالعجز أو الإختلاف، لكن إذا صرخ بها أحدهم. تصلبت فى الأرض، وإمتلات عيناها بالدموع.. ثم تجرى خوفاً من أن تبكى أمامنا كمقهورة.

أحياناً كنا نتوجه للنافورة لنروى عطشنا من مائها، وكنت هى أصغر منى.. تقف تنتظر حتى أفرغ ثم أحملها كى تصل للماء وتشرب.

كانت سعادتها بالأشياء الصغيرة تملأ قلبى بالبهجة والفرح، كثيراً ما تأملتها وهى تحكى لدميتها حكايات جدتها، وتنظف لها ملابسها وتعتنى بها وتصفف لها شعرها، فى اهتمام وعطف.

عبرت مدخل بيتنا القديم وقبل أن أصعد السلم.. تذكرت عندما أحتضنتها هنا لأول مرة، كانت قد كبرت، وأصبحت أجمل فتاة فى بلدتنا، تدخل البهجة لأى مكان هى فيه بحيويتها وتوقدها ونضارتها، وكنت أشعر حينها أننى أكبر من هذا الكون لأنها كانت تحبنى وتثق بى.. كنت أعرف هذا..نامت فى حضنى.. التصقنا.. كمن لا يريد الابتعاد ثانية.. وعرف الجميع عن حبنا.. ورغبتنا فى الأرتباط.

طرقت الباب، فتح ببطء شديد، كانت وجوه عائلتى تملأ الغرفة، ظلت صامتة، جامدة. ابتسمت قليلاً ثم عادت للوجوم، احتضنونى جميعهم فى شوق بالغ وفرح مخلوط بالحزن والدهشة ربما لعودتى فجأة بعد سنوات الغياب والرحيل.

لكن ما سر هذا الحزن..؟ وهذا السواد الذى يكسوهم، وعيونهم المنتفخة.

جلست مأخوذاً وسألتهم .. أين محبوبتى.

لم يجيبوا .. بكت أمى، ووضعت يدها على وجهها.

إصطحبنى صبى صغير ممسكاً بيدى يقودنى من طريق إلى طريق عبر البيوت، وأنا واجم، الناس تتطلع فى.. فى صمت حتى خرجنا على حدود جنوب المدينة، إلى الوادى.

لمحت الشجرة العجوز التى طالما جلسنا أنا وهى تحت ظلالها، هل ما زالت تتذكرنا.. كانت حبيبتى تحب تلك الشجرة.

تحتضنها وتضع خدها عليها فى حنو.. وكنت أخاف أن تجرح الشـــجرة الخشــنة الهرمة نعومتها.. لكنها كانت تقول هذه الشجرة أحبها، تــذكرنى بجــدتى فـــى طيبتهـــا وعطفها وحكمتها، تعطى بلا مقابل وللجميع، وهى أيضا وحيدة ومتفردة.

هناك بعيداً .. فى وادى البكاء

أشار لى الصبى بأصبعه

كان شاهد قبرها الرخامى، وباقة من الزهور الصفراء، وفستان زفافها.

القاهرة ــ أغسطس ٢٠٠٠




AMIN.

يخطئ من يظن الأمطار تتشابه فى كل موسم ومكان، أو أنها قطرات واهنة قدر لها السقوط والضياع، ولم تقوَ السماء على حملها.. فألقت بها صريعة على الأرض، تأخذها الريح كما تشاء وتطؤها أقدام المارة.

تتساقط الأمطار فى موسم الإخصاب، تتسرب فى شقوق الأرض، تفض بكارتها فيصبح الطمى مهيأ لولوج النبت من قلب العدم، وتتكسر أحياناً على الصخور الصلبة فتتفتت وتتناثر حولها ثم تتجمع فى أخاديد تشق طريقها حتى تسقط صريعة فى النهر، فيذوب الماء فى الماء، تتوحد معه ويجرفه التيار بعيداً.

تتقافز القطرات على إسفلت الطريق فى بهجة طفولية، سرعان ما تهدأ وتستكين واهبة الأرض لمعة وبريقاً خاصاً.. فى كل مرة .

تذكرنى الأمطار بها، بإبتسامتها وفرحتها وإقبالها. مع دقات المطر تتقافز إلى رأسي صورتها وكلماتها، إبتسمت وشعرت بالدفء يتسرب إلى.

بجانب الطريق، على الرصيف المظلم، وبجوار الحائط يتكور جسد كهل يرتدى ملابس خشنة ممزقة، تتسرب المياه من ثقوبها ورقعها المتناثرة فى كل مكان وصولاً للجسد المرهق المتسخ بالسواد، تذوب البقع ثم تعود فتتجمع ثانية، تتكون من حوله بقعة مائية على الأرض.. لكن الجسد الساكن لا يتحرك لا يهتم، كأن لا حياة فيه.

بعد خطوات قليلة على الجانب الأخر من الطريق.. وقفت بفستانها الأحمر الساخن اللامع، تستند إلى العامود الزلق، تحت بقعة ضوء خافتة، يلقيها المصباح الواهن من أعلى العامود، الأمطار قد بللت ثوبها الضيق فإزدادت التصاقاً بجسدها، تسقط قطرة ماء من زيل فستانها على رجلها وشرابها الشبكى، فتزيدها إثارة، لكن الشارع قد خلا من المارة، بعد برهة تململت في وقفتها، ثم انصرفت مسرعة.

من بين بنايتين خرج رجل مسرعاً وفى يده طفلة صغيرة تحاول اللحاق به، يبــدو الرجل قلقاً وتبدو الطفلة مبتهجة ومرحة تعجبها لعبة المطر ومن خلفهما زوجته تحمــل طفلاً رضيعاً على كتفها، يحاول الرجل حماية عائلته من الابتلال قدر الإمكان، يســيرون بمحاذاة الحائط ثم يدخل إلى مدخل بناية طالباً الحماية له ولأسرته وينتظر.

قرب منزلى كانت بائعة الخضروات تلملم اشياءها فى لفائف محكمة وتستعد للرحيل بعدما يئست من توقف المطر والعودة للعمل.

أمام باب البيت توقفت لبرهة، شعرت حينها بالبلل والماء المتساقط مــن ملابســى، وشعرت برعشة البرد فى جسدى والدفء الذى فى داخلى، أخرجت المفتاح وأدرته فــى ثقب الباب بعدما أخذت نفساً عميقاً كمن يدخل إلى عالم آخر.





- تمثالى ممنون العملاقان الجالسان على مشارف البر الغربى كحارسان للمنطقة، ناظران فى أتجاه النيل، متجهمان كمن طال عليهما الإنتظار لألاف السنين، هل إختارا أن يوجدا هنا؟ أم عوقبا بأن يظلا هكذا فى العراء كل هذا الزمن، حتى إن الأيام قد أكلت ملامحهما.. لكن قبضتهما لم تنفك أبداً.
- القرنة.. قرية تحتضن الجبل ويحتضنها، سكن أهلها كهوف الأجداد المملوءة بتوابيتهم وتمائمهم.. يولد الأطفال فى حضن المومياوات، يهب الأطفال المومياوات إبتسامة، وتهبهم المومياوات بعضاً من الخلود والحنوط.
- وادى الملوك واد مملؤ بالرهبة والعظمة.. تتجمع فى هذا المكان -تحت الأرض- أجساد ملوك الفراعنة، ومعهم كل ما يحتاجونه فى رحلتهم للعالم الأخر المظلم.، ينتظرون كل صباح الإله "رع" وهو يخرج بمراكبه من الشرق، كى يصارع الثعبان الضخم، وينتصر عليه، حتى يختفى مرة أخرى سابحاً فى النصف الأخر المظلم من العالم.
- أحب الفنان الملكة — إبنة أمون — فبنى لها معبداً يخلد إسمها ويحفظ جسدها.. ربما يلتقيان مرة أخرى فى عالم آخر.

على واجهة الأبواب حفر إسمها والقابها، وعلى الخلفية المظلمة كتب لها أشعاره، ووقع باسمه، فكان هذا المعبد هو قصيدته لها.. وعندما غابت عن الحياة خبأ جثمانها فى قبو خفى، ورقد بجوارها، وظلت قصيدته بمطلعها المهيب يتردد صداها فى بطن الجبل.

- الليل والنهار.. على غير العادة فى تلك البلدة لا ينتصر الليل فى الغروب، ولا ينتصر النهار انتصاراً حاسماً فى الفجر، الشمس والقمر فى صراع دائم.. الصبح إبتهاج حذر، والليل له فحيح ذو صدى عميق، الجدران تتنفس، الأرض تنبت صهد الأرواح، صخور الجبل تنبض بالحكمة، تكاد تفشى أسرارها.. هواؤها همس كلمات قيلت منذ ألاف السنين.

الأقصر



- ترتعش الأضواء.. تختلط دماء الأحمر الساخن، وجليد الأبيض الساكن، وما بينهما مناطق من الكون المهجور، والصوت صادع كالنبض الثائر تملؤه الطبول البدائية.. أنياب وأظافر.. أكواب مملوءة بالثلج والنار، والوهم.. والهروب.

- فى المنتصف تدق الأقدام، تتشابك الأذرع والأجساد.. ينتشى الجسد وتتسرب الروح للخارج مع دخان السجائر، والهمسات الزاحفة على الحوائط، وعلى الجبين تزحف قطرات العرق.. وفى القلب تخطو خيول الألم بتؤده.

تداعبنى عيناك وسط الأضواء كالضمير اليقظ، كالصبح الذى ينتظر، يرتعش الكوب الزجاجي فى يدى، وفى رأسى ملايين الكلمات تطن تزحف.. تتلاقى.. تتصادم، تصير شعراً .. نثراً.. عبثاً.. أو مجرد كلمات فى الحب.

- الشوارع فى الليل مثل الجسد العارى فى الشتاء، البرد الزاحف على الأسفلت الأسود المبتل، أعمدة النور المتراصة فى تكرار أبله شعرت بها تحاصرنى، تلقى بظلال ضوئها الساخن على حدقة عينى المرهقة، التى بالكاد أفتحها لأنظر للطريق.

تسألنى..لماذا عدت؟ وأين كنت..؟

فأجبتها فى الصباح تأخذنى أفواه الناس، وفى الليل تأكلنى أنياب الوحدة.. ما بين الفكين كنت أنا مصلوبا"

- هل كنت فى مصر طوال هذه السنوات أم خارجها..؟
- كنت فى مصر، خارجها .. كنت فى نفسى، أبحث عنى.
- ألم تبحث عنى أنا أيضا.؟
- ليس عندك ما أبحث عنه. أنت جسد شره بلا عقل ولا قلب.

- الأن أنا جسد شره، ألم تتغزل فيه ذات يوم.؟
- ولم أكن أكذب حينها.. وإلى الأن.
- (فى حيرة وأنفعال).. ولم طلبتنى اليوم..؟
- تعب قلبى وحيرنى عقلى، ولم يبقى لى إلا جسد، أعرف أنه جسد مقهور، ملئ بالأوجاع والتواريخ والحروب، والذكريات، لكنه جسدى.. ما زال جسدى.. أو ما تبقى لى منه.





تقطف الأسرار من حديقتها .

وتلملم العطر فى راحتيها..

إلى أن تصل للشرفة يكون العطر قد تسرب من بين أصابعها أو تبخر..

فتغنى للغد القريب على أبوب الفجر، وفى نوافذ الليل المغلقة. تزحف الأزهار فـــى المساء على نوافذ حجرتها..

ويغرد السنونو فى مخدعها.

فتداعب لعبتها، وتضحك فى صمت الوحدة.

تنزل للحديقة فى الصباح بفستانها الوردى، تلملم همس الأشجار المتساقط، وبعــض أغنيات الزمن القديم من على أسطوانات جدتها..

فتزرعها فى لوحاتها. وتغوص بداخلها حتى صارت هي فى قلب لوحاتها نبــت.. وأصابعها..نبت وقلبها لؤلؤ موشى بالألوان.

فى المساء تخلع عنها ثيابها.
وجلباب طفولتها.
وأردية ذكرياتها.
وتنام فتصير كالجنين الحالم

فى الشتاء.. تنقر أصابع المطر على الزجاج فى رتابة تهدهدها فى نومها، وتغســل أذرع الأزهار بأحلامها، وأحيانا يزأر فهد الليل الحالك.. وتبرق عيناه.

فتفزع وتجرى تبحث عن جلباب حكمتها كى يقيها من خوف الشتاء وتضــم إلـــى حضنها لعبتها. ومهرجها الذى يهز لها رأسه يطمئنها فتغفو .. وتنام ثانية.

فهـــرس

المؤلف:

امين الصيرفى

- مواليد القاهرة فى مارس ١٩٦٥م.

الدراسات:

- بكالوريوس تجارة - جامعة القاهرة ١٩٨٦.
- دراسات حرة فى مجال الرسم والتصوير.
- المعهد العالى للنقد الفنى -أكاديمية الفنون (٨٩-٩٠)
- دورة فى مجال الإخراج الأوبرالى وتصميم الملابس (مايو ١٩٩٠)

العضويات:

- يعمل حالياً مسئول نشاط ثقافى بدار الأوبرا المصرية.
- رئيس جماعة الفن والمجتمع للفنانين الشباب
- عضو نقابة الفنانين التشكيليين.
- عضو الجمعية المصرية لنقاد الفن التشكيلى.
- عضو بالعديد من الجمعيات الثقافية والفنية.

المعارض:

- أقام ١٧ معرضاً فردياً للوحاته منذ عام ١٩٨٤
- شارك فى عدد كبير من المعارض الجماعية والمهرجانات
- أقام عدة معارض دولية فى : المانيا (٨٤)، العراق (٨٥) السعودية (٩٠) ، روسيا البيضاء (٩٧) كندا (٩٨) .

المؤلفات:

- ثقب فى جدار الذاكرة - قصص قصيرة (الهيئـــة العامـــة للكتـــاب - ١٩٩١)
- الفن والحب والجمال - دراسة (فورد فونديشن -١٩٩٢)
- سوناتا زهرة القرنفل - اشعار (١٩٩٣)
- أمرأة زرقاء - قصص قصيرة ولوحات (باللغة الانجليزية - ١٩٩٤)
- أمرأة زرقاء - قصص قصيرة ولوحات (دار عيون جديـــدة للنشـــر - ١٩٩٥)
- نساء وخيول . رؤية أدبية للوحات (١٩٩٥)
- تولوز لوتريك - الرسام الثائر (دار المعارف - ١٩٩٧م)
- فنون الفراعنة (C-D.ROM) عربى - أنجليزى - فرنسى.

جوائز وأعمال أخرى:

- حصل على العديد من الجوائز والشهادات التقديرية فى مجـــال الرســـم والتصوير والتاليف مـــن أهمهـــا درع الهيئـــة العامـــة للإســـتعلامات (١٩٨٩)، وسام العمل الأنسانى (١٩٩٠)، منحة تأليف مـــن مؤسســـة فورد الأمريكية (١٩٩٢)، ميدالية أكاديمية الفنون ببلاروسيا (١٩٩٧).
- المشرف الفنى على سلسلة "ترجمات الأوبرا" - دار الأوبرا المصرية.
- قام بكتابة سيناريو فيلم تسجيلى عن دار الأوبرا المصرية.
- قام بتصميم ورسم العديد من المجلات والكتب والمطبوعات.

رقم الإيداع

الترقيم الدولي

طبع بمطابع أولاد قنديل

تليفون : ٣٢٧٢٦٤٢